أهل العلم والفكر في مواجهة التداعي على إفريقيا

كبيرة تلك المطالب التي تنتظر المجتمعات أن يحققها أهل العلم والفكر، في كل مناسبة وملمّة ونازلة، وقضية كبيرة ومصيبة عظيمة، في الوقت الذي ينظر فيه كثير من أهل العلم والفكر في حالهم، فلا يرون بين أيديهم إلا لساناً يتحدث، وقلماً يكتب، وأناساً يستمعون ويسألون، وآخرين يطلبون المساعدة منهم، في حين أن بعضهم لا يملك قوت عياله أحياناً، وفي الوقت الذي تتابع على العالم فيه المغريات والعروض المساومة له على دينه وإيمانه ورسالته التي نذر حياته من أجلها.. امتحان ما أصعبه! العالم ينتظرني ولا يعلم حقيقة حالي!

وتزداد زفرات الأسى لدى المفكر والعالم حين يقرأ في هذا العدد ملف (التداعي على إفريقيا)، فيجد فيه:

- حرباً تنصيرية على القارة الإفريقية تغطي عملية احتلالية مبطَّنة متجددة بصور متغيرة.
- أمريكا تتحدث عن «مهمة كونية» في إفريقيا، وتعطي لحراكها بُعداً رسالياً مزيفاً.
- إسرائيل تقوم بالاحتواء على رؤساء أفارقة، وتستغل بلادهم فتأخذ دينهم ودنياهم.
- سلطة العولمة تزاحم السلطات المحلية بسلطة السوق الرأسمالية.
- وفي عدد سابق من مجلة «قراءات إفريقية»؛ يقرأ عن النشاط الشيعي الإيراني في القارة الإفريقية.

ما الذي جعل المجتمعات تتلمس دور العالم وتحمّله المسؤولية؟ وما الذي جعل الحكومات تسعى حثيثاً لاسترضاء العالم للاحتواء عليه، أو إقصائه، أو محاصرته والتضييق عليه؟ وما الذي جعل العالم نفسه يفرّغ نفسه لحركة لسانه وقلمه في إرشاد الناس؟

يجيبنا التاريخ فيقول: لطالما كان العلماء والمفكرون قادة الأمم الحقيقيين، والعاملين الجادّين.. بهم تُنار الدروب، وتُضاء الحياة، وتُطمس الخرافة، وتُرسم خطط النصر، وتُعدّ برامج التنمية، وتُحل المشكلات، وتُتخذ القرارات، بل على أكتاف بعضهم أحياناً يتسلق المتسلقون، ويعبر الطامحون للنفوذ.

وتجيبنا حقيقة النفس الإنسانية: إن عمل الإنسان يتوجه بالفكر، ولا غنى للناس عن موجّه يقودهم بالوحي، أو يسوقهم بالعقل المستنير بالشرع، أو يجرّهم نحو الهوى، أو يرغمهم بالقرار.

وتجيبنا النصوص الشرعية: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء»[1]، بما حملوه من علم، ونشروه من حق، وأبطلوه من باطل، وفضحوه من زيف، هم مجدّدو الدين، وحماة الفضيلة، ودعاة

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: «حسن لغيره»، ح رقم ٧٠، وانظر حديث رقم: ٦٢٩٧ في صحيح الجامع.

الرشاد.

وأهل العلوم العصرية، يشملهم وصف أهل العلم أيضاً.

مصيبة التداعي على إفريقيا جزء من التداعي على الأمة الذي أخبرنا عنه الحبيب المصطفى ﷺ بقوله: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت»[1].

ولا تعاني إفريقيا التداعي فقط، لكنها تعاني التداعي في أقسى صوره، وتهرب من أنياب القوى المسيطرة، فتقع بين مخالب قوى طامحة للنفوذ، والتي أخفت مخالبها كالقط، لتنشب في الفريسة في الوقت المناسب.

لا يفهم التداعي إلا بأنه تسلط القوي على الضعيف، فهل القوي قوي حقاً؟ وهل الضعيف ضعيف فعلاً؟

لنتأمل في مصدر واحد من مصادر القوة الإفريقية للخروج من التداعي، وهي قوة العلم والفكر، هذه القوة سنجد أصحابها على الأصناف الآتية:

صنف أجّر عقله وقلبه للقوى المتداعية: فجعل نفسه جسراً يعبرون عليه للسيطرة على خيرات بلاده.. وهؤلاء صنف من أصحاب العلوم العصرية، لكنهم خانوا أمانة العلم.

وصنف لم ينتفع بعلمه: تعلّموا علوم الدين فلم ينتفعوا به، فكانوا كالحمار يحمل أسفاراً، اشتروا بعلم الدين ثمناً من الدنيا قليلاً، وصاروا يُصدرون الفتاوى على أهواء الأسياد المحليين والخارجيين، فصاروا بذلك خاضعين للقوى المتداعية بشكل مباشر أو غير مباشر.

وربما كانت مصيبة هذين الصنفين: شعورهم بالضعف والحاجة والعوز الشخصي والدعوي، فأرادوا الانتفاع بالمنح والأعطيات، ونسوا الحكمة القائلة: «احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره»[2].

وصنف ثالث وظفوا علوم الغرب لمصلحة بلادهم، ولم يمنحوهم وصاية على عقولهم وقلوبهم؛ ليقينهم أنهم وإياهم طبقة واحدة كسائر البشر.

وصنف رابع من علماء الشريعة استغنوا بالله فأغنى قلوبهم «ليس الغنى عن كثرة العرَض، ولكن الغنى غنى النفس»[3]، وبغنى قلوبهم رفعوا رؤوسهم فهابهم الناس، وخشيتهم الدول، وأجلبت عليهم بمحاولات الاحتواء والإقصاء.. فما أدركت منهم إلا بعض التضييق والإزعاج، وفي كل مرة يعودون أقوى مما كانوا؛ لأنهم لم يجعلوا لبشر سلطاناً على قلوبهم، فهان عليهم سلطان البشر على أجسادهم، وقال قائلهم: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري؛ أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[4].. وتجسّدت هذه المقولة في مواقف

(١) رواه أبو داود في السنن (٤ / ١١١)، والإمام أحمد في مسنده (٥ / ٢٧٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦ / ٥٣٤)، وهو في كنز العمال (١١ / ٥٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٢٨٧): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه، وإسناد أحمد جيد»، وقال عنه الألباني: «إن الحديث صحيح بلا ريب»، مجلة التمدن الإسلامي (٢٤ / ٤٢١ – ٤٢٦).

(٢) ينسب لعلي رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٤) القائل هو الإمام ابن تيمية، انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي – بيروت، ص ٦٧.

كثير من أهل العلم، كعبد الحميد بن باديس، مؤسس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، حين أراد الفرنسيون إسكاته فعجزوا، وكان له أن أحدث نهضة الجزائر بالعلم والفكر.

وهنا ندرك كيف خسرنا قطاعاً كبيراً من أهل العلم، تخلوا عن الرسالة والهم والمصلحة العامة.

أما البقية من المخلصين فلابد لهم من استجماع قوتهم ليثبتوا وليحققوا مصالح أمتهم.

إن اجتماع أهل العلم لن يتحقق مطلقاً قبل أن تتحد وجهة القلوب إلى علام الغيوب سبحانه وتعالى؛ بأن يكون القصد أن تكون كلمة الله هي العليا، الهدف أن يرضى الله تعالى، والهدف: أن ندخل الجنة، وننجو من النار، الهدف: أن نشكر نعم الله تعالى، الغاية: أن ننير للناس الطريق، وإن لم يعرفوا اسم العالم، ولم يسمعوا به، ولم ينسبوا إليه العلم، إنه لا يرى نفسه إلا عبداً لخالقه الذي خصّه بالعلم، فهو مشتغل بضخامة المسؤولية ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزّمّل : ٥]، ثقيل من عظمة مَن أوحى به تبارك وتعالى، وثقيل من عظمة تشريعاته، ومن روعة نظمه، ومن قوامة الطريق الذي يهدي إليه ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩].

مَن الذي سيعلّم الناس الإخلاص إذا لم يعلمهم أهل العلم، وكيف لأهل العلم أن يعلّموا ما جهلوه عملاً؟ والكلام الذي يقع في القلب هو ما خرج من قلب يخشى الله، فإنما «العلم الخشية»[1].

وحين يتوحد الهدف إلى الله تعالى.. فيبقى أن يتوحد الطريق إليه، فلا اجتماع إلا بتوحّد الهدف، والطريق إلى الهدف.

إن الطريق إلى الهدف حدّده ربنا تعالى، فقال لأبينا آدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه : ١٢٣ – ١٢٤].

فلا يكبح جماح الهوى إلا وحي السماء القرآن الكريم وسنّة النبي العظيم ﷺ.

إن المضي في طريق واحد هو الاجتماع المقصود، وحين تختلف الطرق يدلنا صحب النبي ﷺ ورضي الله عنهم؛ لأنهم شهود العيان، وحملة الوحي، وصفوة الله لخليله وحبيبه صلى الله عليه وسلم.

وبالإخلاص، والاتباع.. يحصل أعظم اجتماع، ولذا سُمّي «أهل السنّة والجماعة» بهذا الاسم، وما اجتمعوا إلا بتوحّد الهدف والطريق.

إذا خلصت نيات أهل العلم الشرعي وتحقق اتّباعهم للنبي ﷺ، وقام أهل العلوم العصرية من أصحاب المبادئ لا المصالح بدورهم تحقق التكامل المنشود؛ لأنهم شركاء في الهدف والطريق، ولأن الطريق المرسوم في السماء لا يستبين في الأرض إلا بأهل العلم بالأرض أصحاب العلوم الدنيوية، من العلوم الإنسانية والطبيعية، كالتربية، والإدارة، وعلم النفس، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والقانون، والإعلام، والتاريخ، والجغرافيا، والكيمياء، والطب، والهندسة، والفلك، والتقنية، وإذا توحدت جهود هذين الصنفين أصبحوا القوة الضاربة، وحين يتّحدون وينسّقون جهودهم سيجدون من فرص الإصلاح ما لا يُحصى؛ لأن

(١) أخرجه أحمد في الزهد عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية».

الله هو الفتاح العليم.

المهم: أن يَعرفوا دورهم القيادي في التوجيه والإصلاح والتنمية، ويُعرِّفوا أنفسهم على أساس هذا الدور، الذي عمل على تشويه دورهم طويلاً ليسهل له استغلال البلاد.

ستتضاءل قوة الأطراف المتداعية على إفريقيا أمام القوة المحلية، بحسب قانون الإزاحة، إذ لا تنمو قوة طرف إلا بإضعاف آخر، فكلما ازددنا قوة ضعف عدوّنا، فلا نحتاج إلى أن نفكر في إضعافه، ويكفينا أن نعمل لنكون أقوياء، ولنملي شروطنا.

وفي ظل هذا الدور الاستراتيجي المحوري لأهل العلم والفكر الذي يحتاج إلى عمل دؤوب طويل حتى يثمر.. هناك مبادرات وواجبات عاجلة عليهم القيام بها؛ منها:

❋ التواصل بين العلماء والمثقفين أصحاب العلوم الدينية والعصرية، واستماع كل طرف للآخر بعمق، وتعزيز التكامل بين الفئتين.

❋ تمكين أهل الإدارة المتميزين من إدارة الاجتماعات والمشروعات والمؤسسات، ليتفرغ أهل العلم والفكر للتوجيه والمشاركة في التخطيط للقضايا الكبرى، فالفكر والعلم هو الخلفية للعمل، فلا بد من ترك مساحة العمل لأهله، ليتفرغ للعلم والفكر أهله.

❋ بيان ما بيّنه الله تعالى من حقائق الأعداء، لتبقى اليقظة تجاه العدو السافر والمتخفي وأمانة العلم البيان، وخيانته الكتمان.

❋ كشف زيف القوى المتداعية سواء على مستوى القارة أو البلد، بالحقائق والأرقام والتقارير، لا بالكلام الإنشائي والخطب فحسب، ولقد أحسن الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين صنعاً في التقرير الذي أعدّه عن (التشيع في إفريقيا)، وقد عرّفت به مجلة «قراءات إفريقية» في عدد سابق.

❋ دوام المناصحة المخلصة برفق وحب، وبكل طريقة متاحة، مع الإشفاق والرحمة بمن تخلّوا عن دورهم من أهل العلم والفكر.

❋ بحث سبل التكامل بين أهل العلم والفكر في مؤسساتهم، وبين كلٍّ من القطاع الحكومي والأهلي، فهذه القطاعات الثلاثة (العمل الخيري التطوعي، والحكومي، والأهلي) هي مكوّنات الدولة والمجتمع، واجتماع هؤلاء في إفريقيا أسهل من غيرها؛ لقلة التعقيدات وبساطة الحياة.

❋ التصدي للجوانب القانونية والشرعية في صياغة العقود الاستثمارية، والتأكد من أن ما تكسبه البلد من العقد يعادل ما تدفعه، لئلا تستنزف خيرات البلاد بمكاسب جزئية أو وهمية.

إنّ قوة أهل العلم بإخلاصهم واتّباعهم المتجرد للحق، وتعاونهم وتنسيق مواقفهم وأعمالهم، ستتلاشى معه كثير من جوانب الضعف الحالية، وسيحوّل هذا كثيراً من التحديات التي أمامهم إلى فرص.

والمهم أن تتوفر الإرادة الجازمة، والعزم المتواصل، ولا بد أن يتفرغ للأمر أناس من أهل العلم والفكر، يجعلون هذه القضية الكبرى شغلهم الشاغل، ورسالتهم الأساسية، ويمنحونها وقتهم ومواردهم كلها.